المجمع الاوربي ومغزاهُ (١)

في ٢٦ سبتمبر سنة ١٨١٥ اجتمعت الجيوش المتحالفة على نبوليون بونابرت اي جيوش انكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا قرب شانون فاغتنم القيصر اسكندر قيصر روسيا تلك الفرصة لحث حلفائهِ على العمل بمشروع طالما كان يعني النفس بتحقيقهِ ولاسيما بعد ما عقدت محالفة ١٤ سبتمبر التي سماها المحالفة المقدسة

فان جيوش الحلفاء احتلوا باريس مرة ثانية وكانت حرب المئة اليوم قد انتهت بمعركة ووترلو . وبات نابليون اسيراً في ايدي الانكليز وملوك اوربا ورجال حكوماتها يتداولون في وضع شروط سلم كانوا يرجون ان يكون سلماً دائمًا لاوربا عامة ولفرنسا خاصة . وكان قد اتى على اوربا ربع قرن لم تعهد فيهِ حسامًا الاَّ في فترات وجيزة . واستعرت نار القتال في فرنسا وهولندا وايطاليا وجرمانيا والبرتوغال واسبانيا وروسيا ومصر وعلى متون البحار حتى تهدم نظام الحكومات الاوربية وتركت الحواضر والبوادي اطلالاً دارسة يتنازعها وحقولها . وناء الخلق بالاعباء العسكرية والمالية

وكان القيصر اسكندر رقيق القلب شديد الانفعال . رأى تلك الحالة فألمَّهُ فقال في نفسهِ ان الفرصة قد سنحت لوضع العلاقات الدولية على اساس مكين وربما لن تعود هذه الفرصة ابد الدهر فاتفق هو وملك بروسيا وامبراطور النمسا على المحالفة المقدسة المشار اليها آنفاً . ومما جاء في بنودها قولهم :

« لاغراض لموقعي هذه المعاهدة الاَّ اعلان عزمهم على الاسترشاد بقواعد الديانة المقدسة وهي العدل والمحبة والسلام . ولا يكتفي بالعمل بها في الشؤون الخاصة بل لا بد للملوك والامراء من الاسترشاد بها لتسديد خطاهم . وسيبقى هؤلاء الملوك الثلاثة مرتبطين برابط الاخاء الصادق الذي لا تنصم عراهُ »

على ان النقاد المعاصرين والمتأخرين هزأوا بهذه المحالفة فقال بترفيخ (٢) عنها انها طبل فارغ ولكنهُ كبير الصوت . وقال كسلري (٣) انها آية في الابهام والسخافة وشك في صحة

---

(١) The Concert of Europe خلاصة مقالة نشرت في مجلة القرن التاسع عشر للسر مارريوت

(٢) Prince Metternich سياسي نمسوي شهير (١٧٧٣ – ١٨٥٩)

(٣) Castlereagh وزير انكليزي (١٧٦٩ – ١٨٢٢)

عقل واضعها ، وارتاب كانغ[1] في حسن نيته واخلاصه . ولا بدع ان ينكر النقاد على القيصر اسكندر ما فعل ويشتبهوا في سلامة نيته وصدق طويته بعد ما اشتهر عنهُ من الاقدام على المناقضات والميل مع كل هوى والانقياد لكل عامل ومؤثر . ولم تكن لغة المعاهدة مما يرضي اهل السياسة لانهم لم يعتادوها فلذلك لم يفهموها . فلا بدع اذا ظنوا انهُ جيء بها خصيصاً لستر مطامع ومآرب خائنة

ومع ذلك كلهِ لم يشكّ اهل الرأي في ان القيصر اسكندر كان عند اعلان تلك المحالفة حسن النية على قدر ما يكون رجل مثلهُ عرف بتقلّبهِ وتعدد مقاصدهِ . ولم يكن اول ساعٍ الى تعزيز السلام ونشر لوائهِ على العالمين بل ان هذا الغرض كان نصب عيون كثيرين ثم جاء الاقتراح المسمى « المقصد الاعظم » وهو اقتراح لا يعرف صاحبهُ بالتحقيق ولكنهُ ينسب الى احد ثلاثة — هنري الرابع ملك فرنسا او وزيرهُ سلي او الملكة اليصابات الانكليزية . وغرضهُ انشاء اتحاد اوربي يكون لهُ مجلس مشترك يفصل في الخصومات الدولية

وفي سنة ١٧١٣ نشر الشيخ « سان بيير » الفرنسوي كتاباً في السلام العام اقترح فيهِ ان يتحالف ملوك اوربا محالفة دائمة و ينشئوا مؤتمراً يرسلون اليهِ مندوبين من قبلهم ويعهد الى هذا المؤتمر في تعيين المسائل التي تجيز للدول ان تقاطع الدولة المبتدية وتتحد عليها حتى تخضع للمشيئة العامة المشتركة

وسنة ١٧٩٥ اصدر الفيلسوف كنت الالماني نشرتهُ المشهورة بعنوان السلام الدائم اقترح فيها امرين لبلوغ هذه الغاية : الاول ان تكون هيأة كل حكومة جمهورية ولا يلزم ان تكون الجمهورية ديموقراطية بل يجوز ان تكون ملكية في شكلها ولكن يجب ان تكون نيابية . والثاني ان يبنى قانون الامم على اتحاد يعقد بين البلدان الحرة . قال « وغاية ما يتمنى كل ملك ان ينال السلام الدائم باخضاع العالم لهُ . ولكن الطبيعة تريد غير ذلك »

وكان القيصر اسكندر قبل هذا المسعى قد انتدب صديقهُ نوفوسلتسوف للسفر الى انكلترا والسعي في تأييد السلام العام وزودهُ بتعليمات اقترح فيها عقد معاهدة تكون اساساً للعلاقات المتبادلة بين دول اوربا وتُعيّن بها حقوق الامم فلا يقدم فريقان على حرب ما لم يفرغ فريق ثالث جمعية حيادية في التوفيق بينهما ويرجع بالفشل . فكان جواب الوزير

(١) Canning وزير انكليزي وخطيب مشهور (١٧٧٠ – ١٨٢٧)

بت[1] الصغير على ذلك ان عواطف روسيا مطابقة لعواطف انكلترا في هذا الامر واعرب عن رغبته في توثيق عرى الاتحاد مع روسيا وضمان سلامة اوربا. ثم حدد الاغراض التي يجب ان تكون نصب اعين الفريقين فاذا هي ما يأتي : (١) تضييق حدود فرنسا وارجاعها الى ما كانت عليه سنة ١٧٩٢ . (٢) ضمان السكينة وارخاء للبلاد التي تسترد من فرنسا واقامة حاجز يحول دون تسلطها في المستقبل . وختم جوابهُ بقوله :

« ولا غنى عن عقد معاهدة عامة تضمن بها كلّ من دول اوربا املاك الاخرى وتكون اساساً للحق العام ورادعاً يردع كلّ حركة توجه في المستقبل لاقلاق الراحة العامة وتقضي على كل عمل من اعمال التسلط والفتح مما جر على اوربا جميع الكوارث التي انتابتها بعد الثورة الفرنسوية »

***

ولنبحث الآن في سير اعمال المجمع الاوربي فنقول :

انقضت سبع سنوات ولا همّ لذلك المجمع الاّ التحكم في مجرى العلاقات الدولية بمؤتمرات يعقدها . فعقد اولها في آكس لا شابل سنة ١٨١٨ وشهده امبراطورا روسيا والنمسا وملك بروسيا وكان بين الحضور مترنيخ وهاردنبرج[2] ونسلرود[3] ودوق ريشليه[4] — وقد جاء هذا الاخير لمطالب الجلاء عن فرنسا — وكسلري ولنجتون[5] فاقترح ولنجتون الجلاء عن فرنسا فوافق المؤتمر على اقتراحه واصبحت فرنسا بعد ذلك عضواً في المجمع الاوربي فصارت المحالفة الرباعية التي عقدت سنة ١٨١٥ محالفة خماسية ادبية كما سميت حينئذٍ

وكانت نتيجة هذا المؤتمر تجديد محالفة سنة ١٨١٥ ولكن بشروط اعمّ من الاولى . فاستقرّ الرأي ان لا يلجأ الى عقد المؤتمرات الاّ عند الضرورة القصوى . وبساعي كسلري مندوب انكلترا نسخت الفكرة القائلة بان يكون للدول العظمى حق مراقبة الشؤون الداخلية في بلاد جاراتهنّ الصغرى او ان يحق لكل منهنّ ان تراقب شؤون غيرها الداخلية

---

(١) Wilhelm Pitt وزير انكليزي مشهور (١٧٥٩ – ١٨٠٦)

(٢) Hardenberg سياسيّ بروسيّ (١٧٥٠ – ١٨٢٢)

(٣) Nesselrode سياسي روسي (١٧٨٠ – ١٨٦٢)

(٤) Duc de Richelieu سياسي فرنسوي (١٧٦٦ – ١٨٢٢) وهو غير الكردينال ريشليه المشهور وزير لويس الرابع عشر (٥) Duke of Wellington قائد ووزير انكليزي مشهور وهو قاهر نابليون في معركة ووترلو (١٧٦٩ – ١٨٥٢)

وسنة ١٨٢٠ شبت نيران الثورة في اسبانيا والبرتوغال وجنوبي ايطاليا . فعزم مترنيخ على قمع ثورة نابلي بالقوة طبقاً للمعاهدات التي تخولهُ هذا الحق . وعزم القيصر اسكندر ايضاً على تأييد القوة المطلقة في اسبانيا والبرتوغال عملاً بمبادئهِ مترنيخ ولكن من غير ان يكون لهُ الحق الذي لمترنيخ على انهما كليهما لجأا الى المجمع الاوربي طالبين موافقتهُ على ما ينويان . فعقد مؤتمر في تروبو سنة ١٨٢٠ للنظر في هذه الحالة حضرهُ كسلري من قبل انكلترا وكان قد عقد العزم على معارضة مترنيخ والقيصر فيما يطلبان . وانقضى هذا المؤتمر بخروج انكلترا منهُ وعود المحالفة المقدسة بين امبراطوري روسيا والنمسا وملك بروسيا الى عهدها السابق فاصدر هؤلاء الثلاثة البروتوكول المعروف باسم بروتوكول تروبو وقالوا فيهِ :

« ان البلاد التي تحدث فيها ثورات لقلب شكل حكومتها وتهدد البلاد الاخرى تبطل ان تكون عضواً في المحالفة الاوربية وتبقى خارجها حتى يضمن النظام ويستتب الامر فيها لكن اذا كان ما حدث فيها من الانقلاب يهدد البلاد الاخرى بخطر عاجل فالواجب على الدول العظمى المرتبطة بهذا العهد ان تلجأ الى الوسائل السلمية او الى السلاح اذا اقتضى الامر لاعادتها الى حضن المحالفة العظمى »

اما مندوب انكلترا فاعترف بانهُ يحق للنمسا ان تتداخل في امر نابلي ولكنهُ ذمَّ المبدأ المتضمن في بروتوكول تروبو بحجة ان ذلك يفضي الى التوسع في التعرض لشؤون البلاد الاخرى مما لا يتفق مع المصلحة العامة ولا مع سلطة الملوك المستقلين . ولكن مترنيخ لم يثنِ عن عزمهِ فانقض المؤتمر من تروبو على ان يعقد في لياخ من اعمال النمسا . ودعي اليهِ فرديناند صاحب نابلي ليعطي حساباً امامهُ عن اعماله مع رعاياهُ الثائرين . فصدر الحكم بأن تتولى النمسا اعادة الامن الى نصابهِ في جنوب ايطاليا . فسيرت الى نابلي ٥٠ الف جندي فقمعوا الثورة الدستورية بيد من حديد واقيمت في نابلي حكومة وصفها غلادستون فيما بعد بقولهِ انها « فضيحة على الدين والحضارة والمروءة والادب »

وفي سنة ١٨٢٢ عقد مؤتمر ڤيرونا وهو آخر المؤتمرات من نوعهِ فحضرهُ ولنجتون مندوباً من انكلترا بعد وفاة كسلري . وكان كسلري قد اقتصر على معارضة المحالفة المقدسة واعمالها بالكلام اما كانتج وزير الخارجية حينئذٍ فما زال يعمل حتى فصم عروتها . ذلك ان ولنجتون صرَّح بلسانهِ امام اعضاء المؤتمر قائلاً « ان انكلترا لا تعطف على اهل الثورة ولا تمد اليهم يداً للمساعدة ولكنها مع ذلك تصرّ على ان يكون للامم المختلفة حقٌّ في تنصيب الحكومة التي يختارونها وفي ان يتركوا احراراً في ادارة شؤونهم ما داموا لا يتعرضون

لشؤُون غيرهم . فاذا قرّ رأي المؤتمر على معاملة اسبانيا بالقوة فان انكلترا تتخلّى عن ذلك العمل ولو آل الامر الى فضّ المحالفة »

وكان ذلك ختامها وختام المجمع الاوربي فان دوق ولنجتون اوقف الدول عن التعرض لاسبانيا بالقوة . وبقي اعضاء المحالفة المقدسة يعملون معاً حتى سنة ١٨٢٥ حينما مات القيصر اسكندر وخلفهُ اخوهُ القيصر نقولا فماتت المحالفة معهُ

***

وانتقل الكاتب الى بيان مغزى كلامهِ عن المجمع الاوربي القديم وعلاقة ذلك بالحالة الحاضرة فقال :

« يرجو الكثيرون ان لا يمضي زمان طويل حتى يعقد مؤتمر للام بعد حرب اعظم هولاً من الحرب التي انتهت سنة ١٨١٥ . وسيكون همّ ذلك المؤتمر افراغ العالم في قالب جديد بعد النار التي يتمحّص فيها الآن . ولا بدّ لهُ من اقامة تخوم جديدة والغاء تخوم قديمة . وسدّ مطامع وطنية على قدر الامكان . والجمع بين مطالب متناقضة . وزد على ذلك كلهِ ان شعور العالم المشترك يرغمهُ على تجديد السعي بشكل من الاشكال في الوصول الى الضمان اللازم لعدم حدوث كارثة اخرى مثل الكارثة الهائلة التي تجتاح العالمين الآن وبناء السلام العام على اسس دائمة لا تتزعزع اركانها

« وقد شرع كثيرون من كبار القلوب والعقول يبحثون منذ الآن عن السبيل المؤدي الى ذلك . وتراهم مجمعين على بعض الامور مختلفين رأياً في غيرها . فما اجمعوا عليهِ انهُ يجب ان تحترم مشيئة كلّ مملكة يبحث في شؤُونها وتابعيتها وان تكون مصلحتها فوق كل اعتبار ولكن كيف تعرف مشيئة هذه المملكة او تلك و باي مسبار تسبر ؟ . فمن المشهور والمعترف بهِ ان استفتاء اهل ولايتي الالزاس واللورين مثلاً في مصيرهم طريقة لا ترضي احداً . ومن رأي احد العارفين ان خير سبيل الى الحلّ المرضي هو تعيين لجنة مختلطة خالية من الغرض ولكنهُ لم يبين لنا كيفية تعيينها ولا كيفية انفاذ احكامها ويرى كثيرون وجوب عمل كلّ شيء في الجهر اي ان تقام المفاوضات الدولية على مرأى من المجالس النيابية ومسمعها . ولكن الخبيرين يقولون لك ان الطريقة المسماة « بالسياسة السرية » خير من السياسة الجهرية لان الاولى متعها اجّلت الحرب الحاضرة بضع سنين ولم تسببها ولا عجلتها كما يقول بعض المتحرصين . وزد على ذلك اننا علمنا بالاختبار ان المفاوضات العلنية لم تجدِ نفعاً في حلّ مشاكل العمال وارباب الاعمال عندنا . ومتى عرفت اسرار الوزارات الاوربية في حينها

فسترى الاجيال المقبلة ما للمداولات السياسية السرية من الفضل في حلّ مشاكل الامم

وقد ادرك العقلاء في القرنين الماضيين ان الحكومة المستقلة المنفردة لا يمكن ان تكون غاية الغايات في الشوء السياسي وانهُ لا غنى للحكومات المختلفة من انشاء اتحاد سلمي وعرض اسباب النزاع والشحناء بينهن على محكمة ذات قوة كافية لانفاذ احكامها. ومن تأليف بوليس مختلط لارغام الدولة المتشيقة بعنادها . كذلك ادركوا ان في الامكان انشاء اتحاد من الحكومات المستقلة على مرّ الزمان

ويقال في ختام هذا البحث انهُ ما من وسيلة مادية مهما بلغ من اتقانها تستطيع ان تنيلنا هذه الغاية التي هي امنية كل رجل بارّ عاقل بل لابدّ من ثورة ادبية اصعب مراساً واشدّ مساساً بالجوهر . فقد قيل انهُ لما عرض القس « سان بيير » اقتراحهُ المشار اليهِ آنفاً على الكردينال فلوري قال « هذه فكرة بديعة لولا اغفال امر واحد . فانهُ لم يذكر فيها شيء عن ارسال الرسل لتغيير قلوب الملوك والامراء » . والحق يقال انهُ مهما بلغت وسائلنا من الكمال والاتقان فلا تفي بالغرض الاّ اذا حسبت حساباً لانتداب اناس يغيرون قلوب الامم فحينئذٍ تنجح محالفتهم حيث اخفقت المحالفة المقدسة التي عقدت بين الملوك المستبدين في اوائل القرن الماضي

طبيبات النساء

في انكلترا

من غريب ما يذكر عن الانكليز انهم على كونهم اعرق امم الارض في الحرية الشخصية والسياسية واسبقهم الى الدفاع عن الدستور حتى سمّي برلمانهم « ام البرلمانات » واولعهم في احترام المرأة حتى اتقد بعدّ احترامهم لها ولفضائلها التي هي واسطة عقدها في مقدمة الاسباب التي آلت الى تفوق الامم الانجلوسكسونية على غيرها — على ذلك كلهِ نراهم مسبوقين في مسئلة من كبريات المسائل التي لها اعظم مساس بالحرية الشخصية واحترام المرأة ومساواتها بالرجل وهي مسئلة نساء والطب

فقد انشأنا مقالة في تعلُّم النساء صناعة الطب نشرت في الجزء الاول من السنة السابعة للمقتطف (١٨٨٢) جاء فيها ما يأتي :

« اشتهرت مدارس ايطاليا الجامعة بتعليم النساء العلم والطب اكثر من غيرها من المدارس فانهُ كان في مدرسة بولونيا الجامعة في القرن الثالث عشر امرأتان الواحدة استاذة